

عندما تكون الكتابة خارج المكان في فكر إدوارد سعيد

When Writing Is Out Of Place According

To Edward Said's Thought

جامعة باجي مختار عنابة – (الجزائر)

شبهة درسوني * chahra darsouni

chahrazeddarsouni@gmail.com

تاريخ النشر: 2025-05-17

تاريخ القبول: 2024-12-27

تاريخ الإرسال: 2024-11-07

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية للوقوف أمام دراسة فكرية معاصرة تتعلق بالكتابة واللغة بالنسبة للمفكرين المنفيين وعلاقة ذلك بالدراسات المابعد حداثية. ويعتبر إدوارد سعيد نموذجا من الكتاب المنفيين الذين كتبوا خارج المكان وأنتجوا باعا من الدراسات المتنوعة بلغة المهجر ومن بينها الإستشراق، وتحليل الخطاب، والسياسات المضادة، ودراسات مابعد الكولونيالية. فكان بذلك إدوارد سعيد الكاتب المنفي: أدبيا وناقدا ومؤرخا وسياسيا خارج المكان والزمان واللغة، مكافحا للخروج من صراع الثنائيات وتجاوز القلق والإضطراب الهوياتي. الكلمات المفتاحية: الكتابة؛ خارج المكان؛ اللغة؛ المنفى؛ إدوارد سعيد.

Abstract:

This research paper aims to engage with a contemporary intellectual study concerning writing and language in relation to exiled thinkers and its connection to postmodern studies. Edward Said serves as a paradigm of exiled writers who produced their works outside their homeland, generating a diverse array of studies in the language of the diaspora, including *Orientalism*, discourse analysis, counter-politics, and postcolonial studies.

Thus, Edward Said, as an exiled writer, was a literary figure, critic, historian, and political thinker operating beyond the confines of place, time, and language, striving to transcend the conflict of binaries and overcome the anxiety and disturbance of identity.

Keywords: Writing ; Out of Place; Language; Exile; Edward Said.

* المؤلف المُرسل: chahrazeddarsouni@gmail.com

1. مقدمة:

يكتب لا تقتصر اللغة في كونها وسيلة للتواصل فقط وإنما تتعدى ذلك بمجرد إرتباطها بفعل الكتابة لتضحي أداة ترسيخ حضاري للجنس البشري بإمتياز، وتعدّدها واختلافها ليس سوى تأكيد على أنّها عامل أساسي في تشكيل هوية الذات وتمييزها عن بقية الذوات الأخرى، بل وتكوين حضارة أمة بتقدّمها وتخليدها في تاريخ الفكر الإنساني، وإلى جانب اللغة تحضر جغرافية المكان بكل ما تحمله من دلالات مادية، دينية، ثقافية، وإجتماعية في تحديد هوية الذات، ليكون فعل الكتابة المسؤول الأول عن تجسيد الهوية وإنتاج الخطاب، وسرد المعارف وطرح المشكلات، ومعالجة مختلف القضايا المرتبطة بها والناבעة من بيئتها الجغرافية وواقعها الإجتماعي وفضاءها التداولي العمومي.

وإذا حدث وأن تعرّضت الذات للهجرة فإنّها ستعاني بالتأكيد من "قلق وإضطراب الهوية"، الذي يجعلها تعيش شرخا بين الموطن الأصلي والآخر المهاجر إليه أي "موطن المنفى"، وهذا ما يسمّى بـ "منفى المكان"، الذي يفرض بدوره "منفى اللغة"، وهذا المنفى المزدوج لا يجد سوى الكتابة فعلا قصديا يسعى بواسطتها لمحاولة الخروج منه، ومن بين المفكرين المابعد حداثيين الذين عايشوا المنفى وترجموه في خطاباتهم وكتاباتهم المفكر الفلسطيني/ الأمريكي إدوارد سعيد، والذي تضمّنت كل أعماله المترتبة على الساحة الثقافية العالمية بمختلف القضايا التي طرحها وعالجتها هذا الشعور بالإغتراب الناجم عن إزدواجية المنفى المكاني واللغوي أو لنقل الهويّاتي، وخاصة في سيرته الذاتية التي كانت موسومة بعنوان "خارج المكان".

وحتى يتسنى لنا التطرّق لثنايا هذا الموضوع وما يفرضه من أهمية كبيرة على الساحة الفكرية اللغوية، الأدبية والفلسفية المعاصرة، وجب طرح الإشكالية الآتية: ما هي الركائز التي قعدت للكتابة خارج المكان في فكر إدوارد سعيد ؟ وكيف أضحت الكتابة خارج المكان إبداعا تصدّر الفكر الما بعد حداثي ؟

2. منفى الجغرافيا واللغة أصل الهوية المغتربة:

إنّ مصطلح المنفى أو الهجرة من بين المفاهيم والمصطلحات التي تحمل العديد من الدلالات والمعاني من قبيل ما يرتبط بالبعد، الحنين، الشوق، الفقد، الإغتراب، وهو الأمر الذي يؤثّر على الذات بداية ثم على علاقاتها مع الذوات الأخرى، وذلك لما يسبّبه لها النفي من قلق وإضطراب يصاحبها طيلة حياتها وهو ما يمكن أن يطلق عليها بـ "قلق الهوية"، إنّه

قلق مستمر لكونه يضحي جزءا لا يتجزأ منها، ولو تراجعنا خطوة إلى الخلف للنظر في أصل معاناتها وقلقها سنلاحظ بأن المنفى الذي تعرّضت له جغرافيا ولغويا وثقافيا ولّد لها الشعور بالإغتراب، والسقوط في منطق الثنائية، وشرخا زمانيا بين الحنين للماضي وإرادة الحياة بالحاضر، على الرغم من أنّها ستظلّ نفسها وهي تحيا شعور النفي وحالة الهجران، وهو ما أكدّه إدوارد سعيد الذي مثلّ الذات المنفية التي صاحبها شعور الإغتراب والشرخ المكاني والزمني مسقطا إياها في منطق الثنائيات مجسّدا في هوية مغتربة، فلقد قال في هذا الصدد: "ففي إختفاء المغادر وكونه مفقودا، وربما مفقودا أيضا، إضافة إلى ذلك الإحساس القوي والتكراري والمتوقّع بالنفي الذي ينتزعك من كلّ ما هو أليف ومريح (...). فإنّ أعظم ما يخيف في المغادرة أنّها حالة من الهجران، على الرغم من أنّ المهاجر هو أنت" (سعيد، إدوارد، 2000، ص 171)، فكيف كان المنفى الجغرافي واللغوي الذي عايشه إدوارد سعيد وجعل منه ذاتا مغتربة ؟

1.2 منفى الجغرافيا:

إذا كانت الثقافة بكل ما ينطوي ضمنها من دين ولغة وعادات وتقاليده وقوانين وممارسات يومية من الركائز الأساسية المشكّلة للهوية، فإنّ هوية أمة ذات إنسانية لا تميّز وتندمج مع نفسها من دون جغرافية تمثّلها وتؤويها وتجعل منها ذاتا مواطنة تمارس حقوق وواجبات المواطنة، وإذا فقدت الذات الإنسانية جغرافيتها والمكان الذي يمثّلها فقدت بذلك الشعور بالإنتماء، وهذا الفقد نتاج لفعل النفي والهجرة من مكان الإنتماء إلى مكان اللانتماء، وإدوارد سعيد وهو الفلسطيني الأصل والأمريكي الجنسية عانى من شعور الفقد واللانتماء أو كما عبّر عنه " بخارج المكان " قائلا: "لطالما كانت خلفيتي متناقضة (...). وكنت أشعر بأنّي خارج المكان" (سعيد، إدوارد، 2008، ص 280)، وهذا راجع لكونه لم ينفي من جغرافيته الأصلية ووطنه فلسطين فقط وإنّما هاجر من مصر ولبنان ليستقر بأمريكا، وبالتالي فإنّ هذه الأمكنة الأربعة (فلسطين، مصر، لبنان، أمريكا) بين الإنتمال واللاإنتمال استقرار بالنسبة له جعلت منه خارج المكان ولا منتميا دائما، وشعور الفقد بالزمان لديه الذي حصره بين حنين الماضي إلى الموطن الأصلي وإرادة الإستمرار بالحياة في المنفى جعله يعيش شرخا بين الخيال والواقع، وقد أعرب عن ذلك في نصه الآتي: " كانت النتيجة أنّنا عشنا في عالم من صنع الخيال لا علاقة له بالواقع، ولا بتاريخ وحقيقة الأماكن التي كنّا نقيم فيها" (سعيد، إدوارد، 2008، ص 259)، وهو ما يؤدّي إلى التأمّل مجدّدا والقول بأنّ

إدوارد سعيد لم يكن خارج المكان فقط كما جاء في سيرته الذاتية التي أخذت هذا العنوان " خارج المكان "، وإنما كان خارج المكان والزمان معا، وهو ما ذهب إليه مايكل ب. ستاينبرغ الذي وصف المنفى الذي عاشه سعيد على أنه يمثل " التجربة الأكثر دلالة عليه: إقتلاع الذات من الزمان والمكان معا"(سعيد، إدوارد، 2015، ص 11).

إنّ منفى الجغرافيا بالنسبة لإدوارد سعيد كان البداية الأولى لتشكّل الشعور بالإغتراب وكان " خارج المكان" موقعه المزدوج والمتناقض بشعور متنام حقيقة كونه خارجيا"(واليا، شيلي، 2007، ص 14)، فالمنفى كجغرافية يؤسّس لمنفى الثقافة من منفى اللغة ومنفى الدين ومنفى القانون ومنفى العادات والتقاليد، والمنفى كذات واعية يجد نفسه عالقا بين فكّين، الأول، جغرافيته الأصلية وماضيه، والثاني جغرافيته الجديدة والممثلة لحاضره، بمعنى " يعيش المهاجر حياتين، الأولى بلغة المكان، لغة الأشياء العملية، والعمل، والشارع. والثانية حياة حميمة، حياة التأمل والذاكرة التي تجري في لغة طفولته"(ليسكانو، كارلوس، 2013، ص 108)، وعلى هذا الأساس فإنّ وجوده دوما يكون في المنتصف ولا ينتمي لأيّ طرف إنتماء كليّا، وقد عبّر إدوارد عن ذلك قائلا: "إنّ المنفى يعيش في حالة وسطية، لا ينسجم تماما مع المحيط الجديد ولا يتخلّص كليّا من عبء البيئة الماضية، تضايقه أنصاف التداخلات وأنصاف الانفصالات، وهو نوستالجي عاطفي من ناحية، ومقلّد حاذق أو منبوذ لا يعلم به أحد من ناحية أخرى"(سعيد، إدوارد، 1996، ص 59)، ومن خارج المكان والزمان أو المنطق المزدوج الذي جعل من إدوارد سعيد يحيا ما بين المنزلتين ويعاني منفى الجغرافيا، فقد إستمر منفاه مع اللغة بإتجاه توليد وترسيخ الشعور بالإغتراب أكثر.

2.2 منفى اللغة:

ومن منفى الجغرافيا إلى منفى اللغة الذي وجد إدوارد سعيد نفسه عالقا فيه نتيجة للغة المزدوجة التي كان يتكلم بها منذ الصغر ثمّ مرحلة التعلّم وصولا إلى مرحلة التعليم، في وسطه الأسري والتعليمي والإجتماعي عموما، لقد أوقعه الإستعمال المزدوج للغة العربية والإنجليزية في مجالات تداولية مختلفة في تناقض وقلق مستمرين، وقد أعرب عن ذلك في قوله: "أنا أتكلّم اللغة الإنجليزية إلى جانب العربية منذ الصبا. ومع ذلك، كان هناك دائما شعور بأنّي غريب في وضع شاذ. لكن، ومع مرّ السنين، لازمني وعي بأنّه لا مكان أود إليه (...)" خلفيتي عبارة عن سلسلة من الإغتراب والنفي لا شفاء منها أبدا"(سعيد، إدوارد، 2008،

ص 94)، ثم إنّ هذا التناقض لم يقتصر على مستوى الإستعمال للغة بل تعدّاه إلى إسمه الذي كان يمثل عنوان هويّته والذي كان مؤلّفا من جزئين الجزء الأول (إدوارد) أجنبي إنجليزي مثل مكان المنفى، والجزء الثاني (سعيد) عربي مثل الموطن الأصلي، إنّهُ تناقض ساهم في جعل إدوارد سعيد يحيا قلق وإضطراب الهوية طيلة حياته على حسب ما ذكره في سيرة حياته وأغلب حواراته ومؤلفاته، فلقد توقّف عند هذه النقطة بالقول: "كان يلزمني قرابة خمسين سنة لكي أعتاد على" إدوارد " وأخفّف من الحرج الذي يسبّبه لي هذا الإسم الإنجليزي الأخرق الذي وضع كالنير على عاتق " سعيد "إسم العائلة العربيّ القح (...). إندغم عندي تحمّل مشقّات مثل هذا الإسم مع ورطة لم تكن أقلّ إقلاقا، تتعلّق باللغة" (سعيد، إدوارد، 2000، ص - ص 35-36)، مضيفا في موطن آخر: "كان الشعور المسيطر علي هو شعوري بامتلاك هوية مضطربة، أنا الأمريكي الذي يبطنّ هوية عربية أخرى لا أستمد منها أيّة قوة بل توّزني الخجل والإنزعاج" (سعيد، إدوارد، 2000، ص 125).

هذا التناقض والإزدواج في المكان واللغة والإسم تفاقم ليجعل منه شخصا " وضع في تشابك تناقضات نظرية وثقافية: تناقضات بين شخصيته المتغرّبة وعلاقته السياسية بوطنه الفلسطيني، تناقضات بين صوته السياسي وموقعه المني، تناقضات بين الطرق المختلفة التي قرئ فيها، تناقضات في الطريقة التي وضع فيها في الأكاديمية" (أشكروفت، بيل، وأهلواليا، بال، 2002، ص 14)، ولكونه ليس شخصا عاديا وإنّما مفكّرا فإنّ الشعور بالإغتراب والمنفى وقلق الهوية يكون أعمق بالنسبة له، نتيجة وعيه الكبير وشعوره بالمسؤولية إزاء أفكاره وقناعاته وإنتمائه الثقافي والسياسي والعقدي التي لا تمثّل في الأخير سوى هويّته، و" سواء كان إدوارد سعيد ناقدا أو محلّلا سياسيا أو منظرّا أدبيا وثقافيا أو مواطنا نيويوركيا فإنّه يمثل طبيعة الهوية القائمة على المفارقة، في الأغلب في دنيا متعولة مهاجرة" (أشكروفت، بيل، وأهلواليا، بال، 2002، ص 14)، ولهذا فإنّ المنفى في نظره يزيد من تعميق الشعور بالإغتراب بالنسبة للذات التي إتخذت منه موطنا أو مكانا جديدا لها، وذلك من خلال وضعه على الدوام بين قوسين، ومواطننا هامشيا يطبّق عليه منطق الثنائية: المركز/ الهامش، وقد أعرب عن ذلك في قوله: "المنفى معناه أن تظلّ على الدوام هامشيا، وأنّ ما تفعله كمفكّر يجب أن يخلق، لأنك لا تستطيع سلوك سبيل قضي به. وإذا تمكّنت من إختبار ذاك المصير، لا كحرمان ولا كأمر يتفجّع عليه، بل كضرب من ضروب التحزّر، وعملية إستكشاف تنقّذ فيها الأمور وفقا للنمط الخاص بك، في ما

تستحوذ على إنتباهك إهتمامات مختلفة، وحسبما يقضي الهدف المعين الذي جدّدته بنفسك" (سعيد، إدوارد، 1996، ص 70)، وهو طبعاً ما يفرضه المكان الجديد أو المنفى على الذات اللاجئة إليه وما يجبرها بعيشه من هامشية حاضرة وشعور بالفقد والنوستالجي والإغتراب، تفرض عليها أن تصاحب الشك الدائم، ولهذا فإنّ إدوارد وهو المثقف الذي يعيش المنفى يؤكّد على أنّ " المثقف في المنفى هو بالضرورة ساخر، ومتشكك، وحتى دعاب لكنه ليس عيّاباً مرتاباً " (سعيد، إدوارد، 1996، ص 70)، وترجع ممارسات الشك والسخرية لديه للوضع الذي وجد نفسه فيها أي تكون ممارسة ذاتية بالنسبة له كنقد ذاتي، وممارسة موضوعية كنقد لكل ما هو خارج عنه من وضع ثقافي وسياسي وإجتماعي، ويبقى التعدّد وعدم الإستقرار والانتفاء للأمكنة واللغات والثقافات التي حضرت بحياته الأصل في كونه هوية مغتربة، معبراً عن ذلك في قوله: "إحساسي بأنّي معلق بين ثقافات متعدّدة كان وما زال قويا جداً. أستطيع القول إنّهُ التيار الأقوى في حياتي: والحقيقة أنّي دائماً داخل الأشياء وخارجها، لكنّي لست أبداً " من " شيء لمدة طويلة" (سعيد، إدوارد، 2008، ص 94)، ولهذا يمكن القول بأنّ منفى الجغرافيا وتعدّد الأمكنة التي لم يستقر بها إدوارد جعله خارج المكان، ومنفى الزمان الذي حاصره بين الحاضر والماضي جعله خارج الزمان، ومنفى اللغة بين اللغة الأم ولغة المهجر جعله خارج اللغة، وكل هذا كان خلف الهوية القلقة والمضطربة التي مثّلت إدوارد سعيد شخصاً ومفكراً وأديباً ومؤرخاً وناقداً.

3. الكتابة خارج المكان فعل مابعد حدائي:

إنّ عصر الحداثة الذي سيطر فيه اللاهوت الأبيض بإسم العقل على اللاهوت الأسود الممّثل للدين أسّس لما يعرف بمنطق الثنائية على نحو (الذات/ الموضوع)، (المادة/ الروح)، (الإنسان/ الطبيعة)، (المركز/ الهامش)، (الشرق/ الغرب)، أدّى إلى فشل مشروع الحداثة والتنوير وذلك لعدم التحكّم في منطق الثنائية وإحداث خلل اللاتوازن فيه، فسادت السيطرة للعقل التقني وتمّ الإنتصار للجانب المادي على حساب الجانب الروحي، وفي محاولة لتجاوز فشل مشروع الحداثة بزغ مشروع ما بعد الحداثة الذي حاول أن يخرج من حصار منطق الثنائيات وذلك بالتحرّر منه وتجاوزه معلناً بذلك بداية عصر السرديات الصغرى والإهتمام بالجزئيات والهوامش بدل التركيز على المركز والكليات، فظهرت إهتمامات وكتابات لمؤلفين تناولوا خطابات ودراسات جديدة من بينها الإستشراق، تحليل

الخطاب، السياسات المضادة، الدراسات الإيتيقية، والدراسات مابعد الكولونيالية، ويعدّ خطاب المنفى الذي مثله العديد من المثقّفين المنفيّين من بينهم إدوارد سعيد كان خارج المكان منطلقه وفعل الكتابة وسيلته في ذلك، ولهذا تعتبر الكتابة عن المنفى والكولونيالية وغيرهما فعل ما بعد حدائي بامتياز.

1.3 الكتابة خارج المكان إثبات للذات:

إن النظرة الكلاسيكية للمنفى والمنفيّين غالبا ما كانت مبينة على النظرة الإستعلانية التي تسلّم بكون المنفى جنة النجاة، والمنفيّين لاجئين لهذه الجنة، وكل منفيّ بعد هجرته من موطنه ينقطع عنه نهائيا لعدم حاجته له مجددا سواء كان ذلك المنفي شخصا عاديا أو مفكرا ومثقفا، وهذا الإنقطاع يتراوح بين الإقناع والإقتناع، وبين الإجبار والإستسلام، إلّا أنّ إدوارد سعيد أنكر هذه النظرة تماما وهو صاحب تجربة المنفى مؤكّدا بأنّ المنفيّ لا ينقطع عن وطنه إلّا بالتواجد المكاني لا غير، ودليل ذلك أنّه لم ينقطع نفسه عن موطنه لا شعورا ولا فكرا ولا كتابة تعبّر عن أرضه ومنفاه وقضيته، ولقد قال في هذا الصدد: "ثمة إفتراض رائج، لكنّه مخطئ كليا، وهو أنّ كونك منفيّا معناه أن تكون معزولا تماما عن موطنك الأصلي، منقطع إتصال به، مفرقا بينك وبينه على نحو ميئوس منه. ألا ليت هذا الإنفصال الكامل القاطع صحيح، لأنّك ستجد عندئذ العزاء في معرفة أنّ ما تركته وراءك هو، إلى حدّ ما، شأن لا مجال للتفكير فيه وغير قابل بتاتا للتغيير" (سعيد، إدوارد، 1996، ص 50)، مضيفا إلى ذلك قوله: "حقيقة الأمر أنّ الصعوبة بالنسبة إلى معظم المنفيّين تكمن لا في مجرد الإضطرار إلى العيش بعيدا عن الأوطان إنّما، إذا أخذ عالم اليوم بالإعتبار، في تحمّل العيش مع الأمور العديدة التي تذكرك بأنّك في المنفى وبأنّ موطنك بالفعل ليس بعيدا جدا، وبأنّ الحركة العادية للحياة اليومية العصرية تبقيك على إتصال متواصل بالموطن السابق لكنّه معذّب لصعوبة بلوغه ولا ينجز" (سعيد، إدوارد، 1996، ص 59)، وهذا ما يدل على أنّه وإن كان للمنفي تأثير سلبي عميق على حياة المنفيّ من شعور الفقد والإغتراب، ففيه من الجانب الإيجابي نصيب كبير، فهو يمكنه من تحويل الشعور بالفقد والنوستالجي إلى إبداع متعدّد ينطلق دوما من بحر الكتابة التي تستعين باللغة للتعبير عن كل ما يرتبط بالذات المنفيّة.

إنّ المنفيّ وفي وضعه يظل يبحث باستمرار عن الطريقة التي تخرجه من حالة الإغتراب التي يعيشها والشعور بالفقد والنوستالجي الذي يعانیه، ولو بالتخفيف من وطأته،

وتختلف الطرائق باختلاف الذات المنفية، وأما بالنسبة للمثقف المنفي فإن الطريقة التي يمتلكها وتساعد في ذلك لا يمكن أن تكون سوى الكتابة، فعلى حد قول كارلوس ليسكانو (1949) أديب وشاعر وروائي ومسرحي ومترجم من الأوروغواي، وعسكري وعضو في حركة التوبمارو وسجين سياسي ومعلم للغة السويدية بعد خروجه من السجن، "إن الشعور بأنك غريب، بأنك (في الخارج) يفرض نفسه من جديد، لأن الكتابة هي طريقة جذرية في أن تكون خارجاً" (ليسكانو، كارلوس، 2013، ص 92)، وعلى هذا الأساس تعتبر الكتابة بالنسبة له "تجربة مع اللغة، أي مع الذات" (ليسكانو، كارلوس، 2013، ص 88)، ومعنى ذلك أنه إذا كانت هناك علاقة وطيدة بين اللغة والذات من منطلق كون كل ذات تمتلك لغة محددة تشكل جزءاً من هويتها، فإن هذا يؤدي إلى القول بأن هناك علاقة بين اللغة والكتابة من جهة كون الكتابة تتخذ من اللغة أداة لتوجد واللغة تتخذ من الكتابة فعلاً لتحفظ، ومن جهة ثانية تكون الكتابة طريقة وتجربة تستند إليها الذات وبالتحديد الذات المنفية في تجربة وجودية محاولة من خلالها أن تتملص من المأزق والتناقض الوجودي الذي تعاني منه، وقد عبّر ليسكانو عن هذه النقطة قائلاً: "أن تبرّر نفسك، أن تفهمها، أن تحققها، أن تمسك بها عبر الكتابة" (ليسكانو، كارلوس، 2013، ص 157)، وهو ما شاركه وإتفق فيه طبعاً إدوارد سعيد حين تطرق في العديد من مؤلفاته إلى موضوع الكتابة التي لا يعتبرها تجربة مع الذات فقط من خلال محاولة تحريرها، بل أضاً حلقة وصل بينها وبين الذات الأخرى والعالم الخارجي ككل، ولهذا يقول في هذا الصدد: "فأنا أتحدث عن هذه الأفكار أو أكتبها لأنها، بعد طول تفكير، هي التي أؤمن بها، ولأنني أريد إقناع الآخرين بوجهة النظر هذه. من هنا، إذن، هذا المزج المعقد بين العالم الخاص والآخر العام، فعندي تاريخي، وقيمي، وكتاباتي، ومواقفي، كما هي مستمدة من تجاربي، من جهة، ومن الأخرى كيفية دخول هذه الخصوصيات كلها إلى العالم الاجتماعي" (سعيد، إدوارد، 1996، ص 28).

لقد قد إستثمر إدوارد الكتابة "للحيلولة دون تفكك الذات وتبعثرها، فغداً وعيه بنفيه الإلهام الرافد لتبصّراته المتوالية في الأدب والسياسة. وكانت النتيجة النهائية إحتراب المنفى مع عالم "الواقع"، والكفاح الرهيف الذي يضطلع به المهاجر بحثاً عن المواءمة والتغيير" (واليا، شيليا، 2007، ص 15)، ولقد ذهب العديد من القراء من مفكرين وأدباء وروائيين وشعراء إلى الإتفاق حول فكرة كون الكتابة هي سبيل النجاة لكل مثقف منفي

وتحديدا إدوارد سعيد، وهي الصديق الوفي الذي يؤنسه في المهجر ويخفف عنه وطأة الشعور بالفقد والإغتراب، ومن بينهم الروائي العراقي علي بدر صاحب رواية مصابيح أورشليم التي كتبها عن إدوارد سعيد وأثبت من خلالها بأن تجربة الكتابة خارج المكان لديه هي الطريقة الصائبة التي إستطاع بواسطتها أن ينتشل ذاته المغترية من قلق وإضطراب الهوية، وهذا النص الآتي مقتطف عبّر به عن ذلك: "أيمن هو نموذج المقتلع، المغترب، المنفي، البلا جذور، هو الفلسطيني التائه بعد أن حلّ اليهودي التائه في أرضه وطرده عنها، غير أنّه وجد طريقة جديدة، وجد علاجاً لآلام إغترابه ونفيه، وهو الحياة فيها عن طريق الكتابة عنها، فتصبح الكلمات عالماً، وتصبح الأحداث حياة، والأسماء كينونة وواقعا، وينسى المكان المعادي الذي يحيا فيه ويعيش في المكان الآخر، المكان غير الموجود إلا على الورقة البيضاء، وهكذا يهرب من هذا الوجود الحقيقي والواقعي، والذي لا يحيه ولا يرغب فيه، إلى إماكن ذاك الوجود المتوهم والمتخيّل، يهرب من الجغرافيا الحقيقية البعيد عنها إلى الجغرافيا المتخيّلة، فيصبح لكل شيء وجوده الفعلي" (بدر، علي، 2009، ص 17).

ولأنّ إدوارد سعيد مفكّر منفيّ فقد كان يميل دوماً إلى التواصل مع الأشخاص المنفيين الذين يجمعهم الشعور ذاته وهو الفقد والإغتراب وذلك في عبارته: "لطالما جذبتني بشدة هذه الجماعات المغترية أو المبعدة قسراً عن أوطانها، التي عمرت بها أرض شبابي في فلسطين ولبنان ومصر" (سعيد، إدوارد، 1996، ص 50)، ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد بل يتجاوزها إلى تأثره الكبير في مجال الثقافة والكتابة والتأليف بالشخصيات المنفية التي جسّدت القرن العشرين والذي يعتبر نفسه بكتابات جزءاً منها ومنتمياً لها، فالرابطة بينهم هي الكتابة خارج المكان، يقول في هذا الصدد: "أحبت القرن الثامن عشر، لكنّه بدا لي وكأني أدرس ثقافة أجنبية، بينما القرن العشرون، بشخصياته المنفية خارج وطنها على وجه التحديد، ومتشرّديه كان أقرب إليّ بكثير" (سعيد، إدوارد، 2008، ص 284)، لأنّ كل المثقّفين المنفيين يكتبون لأجل هدف واحد وهو إيجاد ذاته وتحقيق الإنسجام معها وإثبات وجودها وإختلافها وتمييزها "فأن يكتب المرء، هو أن يروي لنفسه حياة، لأنّ الحياة التي يحياها لا تروقه، أن يكتب هو أن يرغب في الإختلاف عن الآخرين، أن يؤمن بأنّه يمثل شيئاً ما، وأنّ عنده ما يقوله للآخرين" (ليسكانو، كارلوس، 2013، ص 32)، والإختلاف والتمييز الذي يتمتع به المثقّف المنفيّ هو كونه مثقّفاً عضويّاً بلغة ومصطلح الفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي والذي يقصد به ذلك المثقّف الذي يعتبر نفسه جزءاً لا يتجزأ في أيّ

مجتمع يجد نفسه فيه، معنيّ بمشاكله وقضاياه، متحمّل لمسؤولية تنوير أفراداه وتوعيتهم، ويستند إلى المنفى كون هذا الأخير يحزّره من الإرتباط الجغرافي والسياسي والثقافي، " فالمثقفين العضويين هم دائمو التنقل، دائمو التشكّل، على عكس المعلمين والكهنة، الذين يبدون وكأنّهم باقون في أماكنهم، يؤدّون نوع العمل ذاته عاما بعد عام" (سعيد، إدوارد، 1996، ص 22)، وبما أنّ إدوارد سعيد مثقف يعترف بكونه غير ثابت بأرض واحدة كالمثجول والرحالة الذي لا يستقر بمكان معيّن، يمكن إعتباره مثقفا عضويا " إستثمر موقعه كمنفي بامتياز، فهو يمكنه من تجاوز الرطانة المفرغة من أي دور، ومن تجاوز إستكانة المثقفين الأكاديميين الذين يرفضون مساندة القضايا الإيديولوجية التي تستدعي الإلتزام" (اليا، شيليا، 2007، ص 18)، بل وحتى الإنقياد والخضوع.

2.3. الكتابة خارج المكان فعل تحرّر ومقاومة:

طرح الكاتب الأرجنتيني الشهير خورخي بورخيس (1899 - 1986) كاتب وشاعر وناقد أرجنتيني من أبرز كتّاب القرن العشرين، يجيد اللغة الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإسبانية، في محاضرة له ألّقاها في جامعة هارفرد الأمريكية رؤية حول اللغة وعلاقة الكاتب بالكتابة والقراءة معا، قال فيها: " إنّ المرء يقرأ ما يريد، لكنّه لا يكتب ما يريد، وإنّما ما يستطيعه" (البازعي، سعد، 2010، ص 132)، وتتجسّد نظرة خورخيس في الواقع عندما نجد الكاتب المنفيّ ونظرا لتمكّنه غالبا من حيازة لغتين يقرأ بالفعل ما يريده وبكامل حريته، والشيء ذاته بالنسبة للغة التي يكتب بها، ولكن عندما يتعلّق الأمر بما يكتبه يجد نفسه مقيدا في كثير من الأحيان بالقيود الجغرافية والسياسية والقانونية والثقافية، فيكتب بالقدر الذي يسمح له بأن يظلّ على قيد الحياة ممارسا لفعل الكتابة، ولهذا تعدّ الكتابة خارج المكان فعل تحرّر ومقاومة صعب الإكتساب، وبمثابة إبداع حقيقي بالنسبة للكاتب المنفيّ لأنّها لا تقتصر على فعل تحرّره فقط للوضع المتأزم النفسي الواقع فيه، على حدّ قول سارتر بأنّه " ليس بصحيح أنّ المرء يكتب لنفسه، وإلاّ كان ذلك أروع فشل" (سارتر، جون بول، د.س، ص 49)، وإنّما تتجاوزه لفعل تحريره للآخر الذي يشاركه نفس الوضع، وذلك من خلال إتخاذ الكتابة وسيلة للدفاع عن قضية متبنّاة، وعليه " تكون الكتابة عن الماضي محاولة لتحرير الآخر" (ليسكانو، كارلوس، 2013، ص 92)، وهو ما إنتهجه إدوارد سعيد في كتاباته بل وردّه عن أولئك الذين نعتوه بكونه زيف ماضيه وتاريخه وجعل من نفسه مجرد ضحية، من خلال قوله: " كل هذا من شخص يدعي بأنّي شوّهت

الماضي لأنظاھر بأَنِّي ضحية، لا يستطيع أن يفهم ولن يقدر أن يفهم من كتاباتي أَنِّي رحلت لأدافع عن كارثة اللاجئين لأَنِّي لم أعان مثلهم لذلك شعرت بأَنِّي ملزم بأن أريح آلام شعبي الأقل حظاً مني" (سعيد. إدوارد، 2011، ص 59)، لأنَّ "الكاتب يناضل ضد الموت، وبالكتابة، يكتسب الوعي بالموت، لأنَّ الموت هو اللا-كلمة" (ليسكانو، كارلوس، 2013، ص 89)، بمعنى أنَّ المناضل بالسلاح والمناضل بالكتابة وإن اختلفا في الوسيلة فإنَّهما يتفقان في الهدف والمتمثّل في التحرّر وفي النضال ضد المستعمر وضد الموت، فالأول يتخذ من مصاحبته للسلاح خبرة ووعياً بالنضال والموت، وعدم إستعماله له يعدّ بالنسبة له موتاً، والثاني يتخذ من الكتابة وسيلة نضال يكتسب بها مع الوقت وعياً وتجربة بالنضال والموت فيضحي عدم كتابته وفوله لكلمته موتاً في حدّ ذاته.

ثمَّ إنّ الكتابة التي تعدّ فعلاً للتحرّر والتحرير هي فعل مقاومة ضدّ الآخر في علاقة جدلية ولهذا يرى إدوارد سعيد بأنَّ "المرء لا يكتب لمجرّد الكتابة، بل يكتب ضدّ، أو ردّاً على، أو إنطلاقاً من علاقة دياكتيكية ما مع كتاب آخرين، أو كتابات أخرى، أو نشاطات أخرى، أو مواد أخرى" (سعيد. إدوارد، 2008، ص 39)، من منطلق أنَّ لكل قضية أطراف متناحرة ومتصارعة حولها نتيجة للاختلاف الواقع على مستوى الأفكار والمبادئ وهو يمثّله تحديداً لقوله: "أنا، كمثقف، أعرض إهتماماتي أمام جمهور أو مجموعة من المؤيدين، إلّا أنَّ المسألة لا تقتصر فقط على كيفية تعبري بوضوح عن هذه الإهتمامات، بل تتعدّاها أيضاً إلى ما أمثّله أنا بنفسني كشخص يحاول تعزيز قضية الحرية والعدالة" (سعيد. إدوارد، 1996، ص 28)، وإذا كانت الكتابة فعل مابعد حدّائي فلائها وظفّت في الدراسات مابعد الكولونيالية، وهنا تطرح قضية علاقة الكتابة باللغة التي تستند إليها وتستعملها، أي اللغة المختارة المعتمدة من قبل الكاتب المنفيّ بين اللغة الأصلية ولغة المنفى ونجاح أيّ منهما في القضية الموظّفة فيها، لأنّه في نظر إدوارد "كل مثقف، كل محرّر كتاب، ومؤلف، ومخطّط عسكري، ومحام يعمل على نطاق دولي، يتكلم ويتعامل بلغة متخصصة ويستعملها الأعضاء الآخرون في الميدان ذاته، أي أنّ الخبراء المتخصّصين يخاطبون الخبراء المتخصّصين الآخرين بلغة مشتركة لا يفهمها في معظمها الأشخاص غير المتخصّصين" (سعيد. إدوارد، 1996، ص 26)، ويفهم من هذا القول لإدوارد بأنَّ الكاتب لا ينبغي أن يتقيّد بلغته الأصلية أو لغة موطنه للرابطة الوطنية التي تجمعها به، وإنّما للكاتب الحرية في اختيار اللغة التي يراها مناسبة في كتاباته ويرأها مناسبة له أولاً في إستعماله لها، ثم قدرة

على تبني القضية التي يكتب لأجلها ثانيا، وقد أكد ذلك في أكثر من موضع، حين نجده يقول: "كل فرد يتربى على لغة ما، ويمضي في الغالب بقية حياته في كنف تلك اللغة، التي هي الأداة الأصلية للنشاط الفكري" (سعيد. إدوارد، 1996، ص 41)، مضيفا في موضع آخر: "إن المثقف ملزم بإستعمال لغة قومية، ليس فقط لأنها من الواضح ملائمة له ومألوفة لديه، وإنما من باب أمله أن يخلف في اللغة إنطباعة عقلية معينة، ولهجة مميزة، وفي النهاية منظورا يختص به" (سعيد. إدوارد، 1996، ص 41).

إنه الأمر ذاته الذي عايشه إدوارد شخصيا أين كان يستعمل لغتين في التواصل وهما العربية والإنجليزية وذلك بحسب الأوضاع والأمكنة التي يكون بها، إلا أنه إختار اللغة الإنجليزية للكتابة لإعتبارها لغة عالمية وظيفية يمكنها أن تنقل تجربته لكل شخص عادي أو مثقف يعاني النفي والإغتراب، بالإضافة إلى إمكانية تعريفها بالقضية الفلسطينية في كل أنحاء العالم وذلك بجعلها قضية خارج المكان، وبالتالي ليس بالضرورة كونه عربي الأصل واللسان أن يكتب باللغة العربية، ليخرج من منطق ثنائية الصراع لأجل اللغة، ويبرر ذلك في قوله: "أعتقد أن الصراع داخل اللغة من أجل القيم والمفاهيم والجغرافيا صراع مستمر، ويجب فهمه من منطلق محلي نوعا ما، ليس الجميع في إنجلترا يكتبون باللغة الإنجليزية من منطلق نيوكولونيالي أو إمبريالي، توجد بدائل لذلك على الدوام" (سعيد. إدوارد، 2008، ص 280)، ليؤكد لنا إدوارد "بأننا ضيوف اللغة" (كيليطو، عبد الفتاح، 2002، ص 100) في مجال الكتابة، بل ويقدم أيضا أمثلة لشخصيات كتّاب إختاروا لغة الإستعمار في مقابل لغة وطنهم في كتاباتهم وغالبا ما كانت لغة المستعمر إحدى اللغتين العالميتين وهما اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، حيث يقول: "هناك مجموعة كاملة من الروائيين الجزائريين المهمين والشائقين، مثل كاتب ياسين الذي يكتب باللغة الفرنسية، والذي كان معه، رغم ذلك، عضوا في المقاومة الجزائرية ضد الإستعمار الفرنسي. وهناك كتّاب مغاربة، مثل عبد الكبير خطيبي الذي يكتب بالفرنسية. أعتقد أنها مسألة مثيرة للإهتمام" (سعيد. إدوارد، 2008، ص 279)، فالكتابة بلغة الإستعمار تحمل وجهين، الأول، محاربة الإستعمار من منطلق أن "الكاتب المستعمر، بإستخدامه لغة أجنبية، يعيد بناء الواقع الثقافي المعبر عنه في الخطاب الغربي وتأطيره" (واليا، شيليا، 2007، ص 53)، والوجه الثاني تجاوز الإستعمار ذاته لكافة أنواع الإستعمارات عبر كل أنحاء العالم والتعريف بالقضايا الإستعمارية من خلال الدراسات مابعد الكولونيالية، يقول إدوارد:

ثمة إدراك عام بأنه يمكن استخدام اللغة الكولونيالية لمهاجمة نظام السيطرة السياسية ("سعيد. إدوارد، 2008، ص 54)، وبهذا تتحد اللغة مع الكتابة لتساهم في حفظ الهوية وترسيخها بالذاكرة الإنسانية، وهو ما أكدّه إدوارد سعيد في إشارته للعلاقة التي تربط بين الذاكرة واللغة والكتابة وتتجسد في فعل التحرّر والمقاومة وإثبات الذات وتجسيد الهوية، حيث يقول: "إنّ الذاكرة أداة جمعية بالغة القوة لحفظ الهوية. وهي شيء يمكن حمله ليس فقط عبر الروايات الرسمية والكتب، ولكن أيضا من خلال الذاكرة غير الرسمية، إنّها واحدة من الحصون الرئيسية ضد الإنمحاء التاريخي. إنّها أداة للمقاومة" (سعيد. إدوارد، 2007، ص 171)، لتكون الكتابة خارج المكان فعل إبداع ما بعد حدثي لأنّها سعت إلى إثبات الذات من خلال تحريرها ومقاومتها لكل ما يهدّد كينونتها.

4. الخاتمة:

أستنتج في ختام ورقتي البحثية بأنّ المفكر إدوارد سعيد يعدّ من أبرز المفكرين والكتّاب المنفيين المعاصرين، والذي إهتم بالدراسات المابعد حداثية التي أنتجت كتابته خارج المكان، ولهذا فقد كان للمنفي الذي عانى منه على مستوى المكان والزمان واللغة أثرا كبيرا في حياته، مخلفا العديد من التناقضات التي جعلت منه هوية متناقضة يصاحبها القلق والإضراب المستمرين، ولمحاولة منه في تجاوز هذا القلق والإضطراب الهوياتي، كانت الكتابة بمثابة المخرج الوحيد للتحرّر والمقاومة ثم إثبات الوجود بالنسبة الذات، والتحرير والمقاومة بالنسبة للآخر الذي يتشارك وإياه شعور الإغتراب والمنفى، وكان لإختياره في كتابته اللغة الإنجليزية التي مثّلت لغة المهجر مبرّرا منطقيا تمثّل في أنّ اللغة لا يمكن أن تكون غاية في ذاتها وإنّما هي وسيلة لتحقيق غاية، وكيفي أن تتمكّن اللغة المختارة من التعبير عن النشاط الفكري للكاتب وتحقّق الوظيفة التي سطرّها لها.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أشكروفت، بيل وأهلواليا، بال، (2002)، إدوارد سعيد مفارقة الهوية، ترجمة: سهيل نجم، مراجعة حيدر سعيد، سوريا ومصر، دار نينوى ودار الكتاب اللبناني، ط1.
2. البازعي، سعد، (2010)، قلق المعرفة إشكاليات فكرية وثقافية، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط1.
3. بدر، علي، (2009)، مصاييح أورشلیم، رواية عن إدوارد سعيد، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2.
4. واليا، شيلي (2007):، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ترجمة وتقديم: أحمد خريس وناصر أبو الهيجاء، الأردن، دار أزمينة، ط1.
5. كيليطو، عبد الفتاح، (2002)، لن تتكلم لغتي، بيروت، دار الطليعة، ط1.
6. ليسكانو، كارلوس، (2013)، الكاتب والآخر، ترجمة: نهى أبو عرقوب، الإمارات العربية المتحدة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، ط1.
7. سارتر، جون بول (دس)، ما الأدب ؟، ترجمة: محمد غنيمي هلال، القاهرة، دار نهضة، د.ط.
8. سعيد، إدوارد، (1996)، صور المثقف، ترجمة: غستان غصن، مراجعة: منى أنيس، بيروت، دار النهار.
9. سعيد، إدوارد، (2000)، خارج المكان، ترجمة: فواز طرابلسي، لبنان، دار الآداب، ط1.
10. سعيد، إدوارد، (2007)، الثقافة والمقاومة، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، لبنان، دار الآداب، ط1.
11. سعيد، إدوارد، (2008)، السلطة والسياسة والثقافة، ترجمة: نائلة قلقيلي حجازي، لبنان، دار الآداب، لبنان، ط 1.
12. سعيد، إدوارد، (2001)، خيانة المثقفين النصوص الأخيرة، ترجمة: أسعد الحسين، سوريا، دار نينوى.